

جذور الفكر التداولي في الدرس العربي التراثي The Roots of Pragmatic Thought in Arabic Heritage Studies

نجوى مغاوي*

جامعة امجد بوقرة بومرداس (الجزائر)، n.meghaoui@univ-boumerdes.dz

تاريخ الاستلام: 2025/02/24 تاريخ القبول: 2025/07/23 تاريخ النشر: 2025/07/31

Abstract:

Pragmatics is a contemporary branch of linguistic science that investigates the functional use of language by focusing on the key elements of the communication process (sender, receiver, and communicative function). A researcher in the Arabic heritage finds that our early scholars dealt with many issues that lie at the heart of modern pragmatic inquiry. This is due to the clear overlap between rhetorical concepts and those of pragmatics. However, these investigations, which were pioneered by Arab scholars, have reappeared in modern time through Western terminology, carrying concepts that had already been well established in classical Arabic writings.

Keywords: Pragmatics, Arabic heritage, rhetoric, communication, language use.

ملخص البحث:

تعد التداولية علما لغويا معاصرا يبحث في مختلف جوانب استعمال اللغة، من خلال التركيز على أقطاب العملية الاتصالية (المرسل، المتلقي، الوظيفة التبليغية) والباحث في ذخائر التراث العربي يجد أنّ علماءنا الأوائل قد خاضوا في عديد القضايا التي تدخل في صميم البحث التداولي المعاصر. وذلك بسبب التقاطع الواضح بين المفاهيم البلاغية والمفاهيم التداولية، إلا أنّ هذه المباحث التي كان لعلماء العرب السبق إليها قد وفدت إلينا مرة أخرى في صورة مصطلحات غربية حاملة لمفاهيم شاعت في الكتب والمؤلفات العربية منذ أمد بعيد.

الكلمات المفتاحية: التداولية، التراث العربي،

البلاغة، التبليغ، استعمال اللغة.

مقدمة:

تعتبر التداولية من أبرز العلوم اللغوية التي ظهرت في الآونة الأخيرة عند الغرب على يد "أوستين وسيرل وغيرهم)، تهتم بشكل خاص بدراسة الواجهة الاستعمالية التي تركز عليها اللغة الإنسانية بوصفها من أنجع أدوات التواصل البشري، حيث تركز بحوثها على المحاور الثلاثية الأساسية التي توجه العملية الاتصالية ونعني بذلك (المتكلم، السامع، الوظيفة الأساسية لعملية التبليغ)، وقد وقف العلماء العرب على رأس من هموا بدراسة العلوم اللغوية لأجل الحفاظ على القرآن الكريم، ومن ثم فقد زخرت كتبهم ودراساتهم بالكثير من القضايا والمفاهيم ذات الصلة بهذا الموضوع، مع التذكير بأن دراساتهم وتنظيراتهم لم تتعدّ حدود الإشارات العلمية المعروضة في ثنايا سياقات علمية مختلفة، على رأسها البلاغة العربية التي شكّلت لهم المفتاح الذي يلجون به إلى صرح النصوص القرآنية فيفهمونها ويحدّدون مقاصدها وأغراضها التبليغية.

ومن ثمّ سنحاول من خلال هذه الورقة البحثية أن نكشف عن بعض ملامح التداولية الغربية في أعماق الفكر العربي القديم. مشيرين في السياق ذاته إلى أهم أعلامها الذين انطوا تحت إطار الفكر البلاغي بصورة عامّة.

2- مفهوم البلاغة العربية ونشأتها:

إنّ المتأمل في التعريفات الاصطلاحية التراثية والمعاصرة التي حاولت أن تحدّد مفهوم البلاغة بدلالاتها الاصطلاحية، يجد أنّها قد أشارت في خضمّ ذلك إلى الأصل اللغوي الذي ارتبطت به الكلمة والتي ارتكز عليها في تحميلها الدلالة الجديدة، عن هذا يقول "أبو هلال العسكري": "إنّ البلاغة سميت بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه".¹

وفي السياق نفسه يقول صاحب "كتاب موجز البلاغة": "لاشكّ أنّ في اشتقاق لفظة بلاغة من مادة (بلغ) ما يشير إلى الوظيفة الأساسية للبلاغة، ذلك أنّ بلغ الشيء يعني وصل وانتهى، وبلاغ الكلام إذا يعني أنّه وصل إلى المخاطب، وانتهى إليه، والإبلاغ هو الإيصال".² أي إيصال معنى الخطاب إلى المتلقّي سامعاً كان أم قارئاً.

وبناء على المعطيات السابقة يرى بعض الدارسين أنّ البلاغة تحتل مرتبة موازية للغة، لأنّ البلغاء الأوائل الذين وظفوها في كلامهم وأساليهم قبل أن تصل إلى مرحلة التقعيد العلمي كانوا "ينظرون إليها على أنّها الوسيلة إلى الإعراب عمّا في النفس بصورة تمنع من سوء التعبير وسوء الفهم، وتصل بالمعنى إلى القلب، ولا شكّ أنّ ذلك يعني أنّهم جعلوها في منزلة مساوية لمنزلة اللّغة إن لم تكن هي نفسها... فمادامت اللغة هي وسيلة التفاهم بين الناس فكلّ ما يؤدي إلى هذه الغاية، أو يعين على بلوغها فهو جزء من اللغة متمم لها، وقيمتها من قيمتها".³ ووفقاً لذلك، تعتمد البلاغة في عمومها، على ثلاث دعائم أساسية تجعل الكلام يرتقي إلى أعلى المراتب البلاغية وهي:

- الأساس الأول: الجمال الذي يؤثر في النفس البشرية، التي تميل فطرياً إلى كلّ ما هو جميل، وترتاح له، وتنفعل بكلّ مؤثراته.

- الأساس الثاني: فصاحة كلماته، وخضوعه لضوابط وقواعد المنهج اللساني الذي يحكم اللّغة. وهذا الضابط لا يبعده عن المقاييس والمعايير الجمالية.

- الأساس الثالث: "كون الكلام بليغاً، أي مطابقاً لمقتضى حال المخاطب فرداً كان أو جماعة، وبالغا التأثير المرجوّ في نفسه، ولا يخلو هذا أيضاً من مؤثرات جمالية"⁴ قادرة على الإقناع والامتناع في الوقت ذاته.

3- أصالة المبادئ التداولية وتجلياتها في البلاغة العربية:

تقوم عملية التخاطب في مختلف مستوياتها على أربع دعائم أساسية هي " المتكلم (الذي ينشئ الخطاب)، المخاطب (هو الذي يوجّه إليه الخطاب)، الخطاب (هو النصّ أو الرسالة التي تنتقل من المخاطب إلى المخاطب)، السياق (وهو جميع الملابسات والظروف والأحوال التي تحيط بعناصر العملية التخاطبية) وهي نفسها المرتكزات المفاهيمية التي تقف على أساسها اللسانيات التداولية.

وعليه، سنسعى في هذا السياق إلى تلمّس بصماتها في التراث البلاغيّ العربيّ محاولين استخراج أهمّ المبادئ النظرية التي خلّفها البلاغيون العرب في هذا المضمار مع التذكير بأنّ " أمثال تلك الآراء إن جاز وصفها بالنظرية، كان لها أساس في الواقع، فإنّها وضعت بعد النظر في نصوص قليلة، وفحص ما فيها من أسباب القوة أو الضعف، وعناصر الجودة والرداءة"⁵ ومن ثمّ سنستعرض البعض من ملامحها العربية التراثية في ورقتنا البحثية هذه.

1.3 - السياق (مقتضى الحال، المقام، النظم):

عرف هذا المصطلح في الدراسات البلاغية العربية بمسمّيات مختلفة تتفق كلها في محور مفهومي واحد، لعلّ أشهرها ما يطلق عليه (مقتضى الحال) أو (المقام) ممّا يعني أنّها فكرة متأصلة في الفكر البلاغي القديم على الرغم من أنّها تعتبر من المنطلقات الأساسية التي تقوم عليها التداولية الحديثة، حيث تظهر آثارها في صورة واضحة من خلال معظم التعريفات التي تناولت مفهوم البلاغة. والتي كانت أغلبها تقرنها دائما بمقتضى الحال، حيث يعرفها "القزويني" وفق هذا المبدأ فيقول: "وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته."⁶

إنّ المقصود بكلمة (مقتضى) وجوب الأخذ بعين الاعتبار كيفية صياغة عبارة ما بحيث تكون مناسبة للحال أو المقام الذي تقال فيه، ممّا يقتضي تغييرها لتغيّر هذا المقام كي تحقّق الفائدة المرجوة من خلالها. وعلى هذا الأساس فإنّ مفهوم (مقتضى الحال) لا يختلف كثيرا عن مفهوم (المقام) الذي يتلخّص في " مجموعة الاعتبارات والظروف والملابسات المحيطة بالنشاط اللغوي، ويؤثر فيه بحيث لا تتجلّى إلا في ظلّها."⁷

ومن المكافئات المصطلحية التراثية لكلمة (مقام) نجد أيضا مصطلح النظم الذي طبع التفكير البلاغيّ عند "الجرجاني" وعن هذا يتحدّث "القزويني" فيقول: "...وهنا أعني تطبيق الكلام على مقتضى الحال، هو الذي يسميه الشيخ عبد القاهر بالنظم."⁸ وقد كان قبله "بشر بن المعتمر" هو أوّل من أشار إلى فكرة المقام، فكان ممّا نقله عنه "الجاحظ" أنّه قال: " وإنّما مدار الشرف - شرف المعنى - على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال."⁹

نستشف ممّا سبق ذكره، أنّ المبادئ التداولية نشأت في صلب البلاغة العربية باعتبار أنّ مبدأ (المقام) يعني أنّ المعنى كي يضمن وصوله إلى المخاطب، فيتقبّله يجب أن يجمع بين الصحّة والصواب، إضافة إلى أنّه يجب أن يحقّق منفعة وفائدة، ولكي تتحقّق هذه النتيجة على الصورة المطلوبة وجب على المتكلّم أن يوازن بين المعنى المراد إيصاله وبين المخاطب الذي يوجّه إليه الكلام، وبين الحال أو المقام الذي يحيط بمجرى عملية التخاطب، ممّا يعني أنّ بنية الخطاب تختلف تماشيا مع اختلاف الأغراض والمقاصد التي يرمي إلى تحقيقها. عن هذا يقول " السكاكي: "، لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنية يباين مقام التعزية... وكذا مقام الكلام ابتداء يغيّر مقام الكلام بناء على الاستخبار والاستنكار، ومقام البناء على

السؤال يغيّر مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكلّ لبيب، وكذا مقام الكلام مع الذكي يغيّر مقام الكلام مع الغبيّ، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.¹⁰ ومن ثمّ فإنّ تباين أنواع المقامات سيؤدّي بالضرورة إلى تباين الخطابات والوسائل اللغويّة التي تبني عليها، وكلّ ذلك تماشياً مع أهداف المتكلّم والمقاصد التي يبتغي تحقيقها.

2.3. مراعاة حال المخاطب:

إنّ مجرد التعبير عن المقاصد الخاصّة التي تجول بخاطر المتكلّم لا تعني أبداً أنّها وصلت إلى المخاطب على الوجه المطلوب، فذلك يتطلّب من المتكلّم أن يراعي حال السامع أو المخاطب الذي وجّهت إليه الرسالة الكلاميّة، عن هذا يقول "إبراهيم أنيس": "لا بدّ للمتكلّم من مراعاة فهم السامع حتى يصل بهذا الكلام إلى قلبه، ومنها إلى الحكم على ذلك بالبلاغة".¹¹

ومن ثمّ فإنّه يمكن القول بأنّ مراعاة حال المتلقّي تحتلّ أهميّة بالغة في مختلف المواقف الاتّصاليّة، ممّا يعني أنّه لا يمكن الحكم على الكلام المنقول بين طرفي العملية الكلاميّة بالبلاغة إلّا إذا كان التواصل بينهما قد وصل إلى درجة التفاعل، وهذا ما ترسّخ في الفكر البلاغيّ العربيّ منذ القديم، وقد أثبتته علماء كثيرون، أمثال "الجاحظ" الذي يقول مؤكّداً هذا المبدأ التداوليّ المعاصر: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار السامعين، وبين أقدار الحالات، فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاماً، ولكلّ حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسّم الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات".¹²

ومن هذا المنطلق سنشير فيما يأتي إلى جملة من المبادئ التي تتعلّق بالمخاطب، والتي يجب أن يأخذها المتكلّم بعين الاعتبار في معرض كلامه، وهي:

أولاً. الحالة النفسيّة للمخاطب

ونعني بها مدى انفعال المخاطب مع الكلام الذي يوجّه إليه، ومن ثمّ تفاعله مع المتكلّم، في هذا السياق يكشف "ابن وهب" عن ملامح الحالة النفسيّة للمخاطب والتي يجب أن تستوقف المتكلّم أثناء مجريات الحدث الكلاميّ، فيقول: "إذا رأى من القوم إقبالا عليه، وإنصاتا لقوله، فأحبّ أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم، وإذا تبين منهم إعراضا عنه، وتثاقلا عن استماع قوله خفّف عنهم".¹³

كما عليه أن يكتشف بفتنته وذكائه ما يستهويهم في مختلف الأوقات والمقامات، حتى وإن كان ذلك لا يتماشى ورغباته، وذلك حرصاً على تحقيق الفائدة والمتعة في الآن نفسه، يتجلّى كلّ ذلك في معرض حديث "ابن رشيق القيرواني" عن مواصفات الخطيب البار، إذ يقول: "الظنّ الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين فيقصد محابهم، ويميل إلى شهواتهم، وإن خالفت شهوته، ويتفقّد ما يكرهون سماعه، فيتجنّب ذكره".¹⁴

ثانيا: المستوى الثقافي واللغوي للمخاطب

إنّ للمستويات السابق ذكرها دورا كبيرا في عملية اختيار الركائز التي يجب أن يبنى عليها الكلام، خاصة إذا كان الهدف المبتغى هو التأثير في المتلقي وإقناعه، يتوقف "أبو هلال العسكري" عند هذه الجزئية فيقول: " فإذا كان مفهوم الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقيّ بكلام السوقيّ و البدويّ بكلام البدويّ، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب."¹⁵ التي تعتبر في مجملها الهدف الأساسي من الكلام.

ثالثا: جنس المخاطب:

يؤثر جنس المتلقي تأثيرا لا يستهان به في توجيه مسارات الحدث التخاطبي، لأنّ الطبيعة النفسية والخلقية وحتى السلوكية للأنثى تختلف عن طبيعة الذكر، ومن ثمّ لا يجوز مخاطبة الجنسين بالآليات اللغوية والبلاغية نفسها إذ " للنساء مراتب في مخاطبتهنّ ينبغي للكاتب أن يعرفها... وبالجملّة ينبغي للكاتب إلهنّ كل لفظة يقع فيها اشتراك يمكن أن تتأوّل على ما يقبح، فإنّ ذلك من حذقه ونبله."¹⁶ وحسن تحكّمه في مسارات كلامه.

3.3. الحجاج والإقناع:

يعتمد التواصل اللغوي على تبادل الأدوار بين المرسل والمرسل إليه، أي بين المتكلم والمستمع ممّا يضمن جوا تفاعليا بينهما، لأنّ الانسان في علاقته مع غيره يعيش حالة تواصل دائم، فهو من هذا المنظور إمّا أن يتفق معهم ويشاطرهم وجهات نظرهم، وإمّا أن يخالفهم فيها، فيسعى على إثر ذلك إلى إقناعهم والتأثير فيهم، وبالتالي دحض آرائهم التي تتعارض مع آرائه ومعتقداته وأفكاره.

يدخل كلّ هذا في إطار ما يعرف في الدراسات البلاغية (بالحجاج) بوصفه ظاهرة لغوية ذات أبعاد منطقية واستدلالية، لأنّه يسعى إلى تحقيق هدف أساسي هو الإقناع والتأثير في المتلقي بغضّ النظر عن صحّة الحجة التي يعتمدها المتكلم في الدفاع عن رأيه وإقناع الآخرين بصحّته. ومن هذا المنطلق يقف الحجاج على " وجود قصدين حواريين هما قصد الادّعاء، وقصد الاعتراض إذ يرتبط قصد الادّعاء بالمخاطب الذي يدّعي أمرا، ويستعدّ تمام الاستعداد لإقامة الدليل عليه عند الضرورة، ومن فقد هذا الحقّ فيكون إمّا دائم التسليم بما يدعيه المخاطب، وإمّا عديم المشاركة في مدار الكلام."¹⁷ لأنّه في الحالتين معا لا يحتاج إلى حجج وأدلة إقناعية.

يحتل الحجاج في الدراسات المعاصرة موقعا متميزا بفضل العودة الجديدة والقوية لما يعرف بالبلاغة الجديدة والتي تقوم في أساسها على الحجاج والبيان باعتبارهما من الآليات الإقناعية المحورية في عالم البلاغة وفنّ القول، وهذا يبرز لنا وثيقة العلاقة التي تربط بين البلاغة والحجاج، لكون البلاغة تتأسّس على وجهتين بارزتين تتمثّل الأولى في الواجهة الإقناعية، بينما ترتبط الثانية بالواجهة الفنية الجمالية، أي " أنّ الأساليب البلاغية قد يتمّ عزلها عن سياقها البلاغيّ لتؤدّي وظيفة لا جمالية إنشائية كما هو مطلوب في سياق البلاغة، بل هي تؤدّي وظيفة إقناعية استدلالية كما هو مطلوب في الحجاج."¹⁸

ومن ثمّ، فإنّ الأساليب البلاغية - كما يرى صابر الحباشة - تتمتاز بخاصية التحوّل التي تمنحها القدرة الكاملة على أداء أغراض تواصلية، ومقاصد حجاجية إقناعية وأبعاد تداولية في وقت واحد.

يعتبر الحجاج عند البلاغيين العرب وسيلة من وسائل الإقناع، الذي يعرفه "حازم القرطاجيّ" فيقول: " القصد في التخييل والإقناع حمل النفوس على فعل شيء أو اعتقاده، أو التخلّي عن فعله واعتقاده."¹⁹ وفي

الحالتين يجب على المتكلم أن يتوسل أنماط وأساليب لغوية وبيانية تساعد على ذلك، ولهذا فقد عرف التراث البلاغي العربي القديم ضرباً حجاجية متنوعة ارتبطت جلّها بالخطابة أكثر من غيرها من الفنون القولية الأخرى، لكنّها عرفت عندهم بتسميات مختلفة نستعرض فيما يأتي أهمّها، مشيرين في سياق ذلك إلى أهمّ البلاغيين والنقاد الذين اهتموا بقضية التفاعل بين البلاغة والحجاج، وعلى رأسهم:

- الجاحظ:

يعدّ الجاحظ من أبرز العلماء العرب وأكثرهم اهتماماً ببلاغة الكلام، ومن ثمّ فقد كان الحجاج - بمفهومه الحديث - من أبرز المحاور التي ركّز عليها في دراساته، حيث يذهب إلى إنّ الحجاج جنس من البيان، عن هذا يقول: "مدار الأمر والغاية التي يجري عليها القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام، فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان..."²⁰

- حازم القرطاجي:

يرى "حازم القرطاجي" أنّ الشعر على غرار النثر قد يحمل في ثناياه أبعاداً حجاجية كما قد يحمل النثر بدوره بعضاً من سمات الشعر، إذ يقول موضحاً هذا المبدأ: "إنّ التخيل هو قوام المعاني الشعرية، والإقناع هو قوام المعاني الخطابية، واستعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ إذا كان ذلك على جهة الإلماع في الموضوع بعد الموضوع، بل سائغ لكليهما أن يستعمل سيرا فيما تتقوّم به الأخرى، لأنّ الغرض في الصناعتين واحد هو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس محلّ القبول لتتأثّر لمقتضاه".²¹

- السكاكي:

يربط "السكاكي" بين الحجاج والاستدلال الذي يجعله من الركائز المعرفية التي يجب أن يلمّ بها المشتغل بعلم البيان والمعاني على وجه الخصوص، إذ أنّ "تتبع تراكيب الكلام الاستدلاليّ ومعرفة خواصّها، ممّا يلزم عليّ البيان".²² وذلك لأنّ البلاغة من وظائفها تهيئة السبل والوسائل التي من شأنها أن تحقّق الإقناع وتدعّمه.

4.3: الأفعال الكلامية

تعتبر نظرية الأفعال الكلامية مفهوماً نظرياً حديث النشأة، إذ عرفت بوادره الأولى في أحضان الفلسفة التحليلية الغربية، وهو في الأصل حدث لغويّ يسير وفق ضوابط اجتماعية، حيث يعرف بأنّه: "التصرّف أو العمل الاجتماعيّ أو المؤسّساتي الذي ينجزه الإنسان بالكلام، ومن ثمّ فالفعل الكلاميّ يردّ به الإنجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معيّنة، ومن أمثلته: الأمر، والنهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة والتعزية والتهنئة... فهذه كلّها أفعال كلامية".²³

يعدّ أوستن الأب الروحي لهذه النظرية التداولية المعاصرة، حيث يتلخّص - هذا المفهوم - عنده في أنّ اللغة عامّة لا تتوقّف عند حدود التلفظ فقط، وإنّما هي تحمل في طيّاتها قوى إنجاذية تتماشى ورغبات الأطراف الأساسية في العملية التواصلية أي المتكلم والمستمع، من هذا المنطلق ينقسم الكلام البشريّ عند أوستن إلى قسمين رئيسيين:

- القسم الأوّل: هو قسم تقريريّ يتعلق بالخبر الذي يحتمل الصدق أو الكذب.

- القسم الثاني: هو قسم إنشائي يتخذ المتكلم مطية لإنجاز عمل ما، أي أنه في هذه الحالة لا يقتصر على مجرد التلفظ أو التكلم فقط، بل يهدف بواسطته إلى تحقيق أهداف أخرى تخرج عن نطاق اللغة في ذاتها لتدخل في بؤرة التواصل اللغوي الذي يقتضي من المتكلم والسامع أن يحققا غرضا ما من ورائه.

إن أهم ملمح في هذه النظرية الجديدة يتلخص في أنّ "سيرل" وقف عند نقطتين أساسيتين تتمثل الأولى في رفضه للثنائية التي قسّم بموجبها أستاذة الكلام إلى صدق وكذب، بينما تتعلّق الثنائية بإقراره بأنّ كلّ كلام أو قول هو عبارة عن فعل.

وفي السياق نفسه، وقبله بعقود زمنية طويلة كان الجاحظ قد تنبّه إلى الجزئية نفسها، حيث أنكر الفكرة التي اعتقدها معاصروه، والتي تتجلّى في حصرهم الكلام أو الخبر على وجه التحديد في الثنائية المشهورة (الصدق أو الكذب) ولذلك ارتأى أن يضيف إلى التصنيف السابق عنصرا ثالثا هو الخبر الذي لا يمكن الحكم عليه بمعيار الصدق، ومن ثمّ فأقسام الكلام عنده محصورة في قسمين - على غرار ما جاء به "سيرل" - وهي:

- "القسم الأوّل (الخبر الصادق): وهو الذي يطابق الحكم فيه الواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه.
- القسم الثاني: (الخبر الكاذب): وهو الذي يطبق فيه الحكم الواقع أو لا يطابقه مع عدم اعتقاد المخبر له"²⁴

تأسيسا لما سبق، وبالعودة إلى الرصيد البلاغي العربي، يمكن التأكيد بأنّ (نظرية الأفعال الكلامية) قد تموّقت ضمن ما أسماه علماؤنا الأوائل ب (علم المعاني) وتحديدًا تحت إطار المباحث المتعلقة (بالخبر والإنشاء) أو (أقسام الكلام) بكلّ فروعها وتصنيفاتها، يتأكّد هذا عند "مسعود صحرأوي" عندما قال: " نظرية الخبر والإنشاء عند العرب من الجانب المعرفي مكافئة لمفهوم الأفعال الكلامية عند المعاصرين."²⁵

وفي هذا الإطار يرى "أحمد المتوكّل" أنّ الباحث في الموروث البلاغي العربي يجد أنّه قد زخر بمفاهيم وتنظيرات متنوعة تقترب كثيرا من المبادئ التداولية التي طرحها الفكر التداولي المعاصر. بدليل اهتمام العلماء والفلاسفة والبلاغيين العرب بهذه الظاهرة باختلاف مناحيم وتوجهاتهم، فمن الفلاسفة نذكر (ابن سينا، القزويني، الفارابي...)، ومن الفقهاء نجد (القرطبي، الرازي...)، ومن البلاغيين نشير إلى (الجراني والسكاكي ...) وغيرهم كثيرون، وقد كان الدافع الأكبر لاهتمامهم بها هو سعيهم إلى تحديد المعاني الوظيفية للقول وضبط مختلف السياقات والمقامات التي يرد فيها والتي من شأنها أن توجّه دلالتها، وهو سعيهم الحثيث إلى فهم النصّ القرآني بمختلف مظاهره الأسلوبية.

لقد اختلف علماء البلاغة في تقسيم الكلام العربي، لكن تصنيفاتهم هذه على الرغم من عدم اتّفاقها، إلّا أنّها ترتكز على محورين أساسيين هما:

- المحور الثلاثي (خبر، إنشاء، طلب):

وأهم من اتبع هذا التصنيف "جلال الدين السيوطي" الذي يرى بأن الكلام عموماً ثلاثة أصناف، فهو "إمّا أن يحتمل التصديق أو التكذيب أو لا، فالأول: الخبر، والثاني: إن اقترن معناه بلفظه فهو الإنشاء، وإن لم يقترن بل تأخر عنه فهو الطلب."²⁶، كما يذهب إلى التصنيف نفسه "رضي الدين الاسترابادي" حين يقول: "إن الجملة غير الخبرية إمّا إنشائية نحو: بعث وطلّقت، أو طلبية: كالأمر والنهي والاستفهام والتمني."²⁷

- المحور الثنائي: (خبر، إنشاء)

هناك من العلماء من انتهج في بداية الأمر التقسيم الثلاثي (خبر، إنشاء، طلب) ثم ما لبث أن عدل عنه الكثير منهم "فابن هشام" كان على رأس من وجد أنّ هذا التصنيف الثلاثي غير صالح، على الرغم من أنّه اتبع أصحاب هذا الرأي في بداية الأمر، وظلّ هذا الخلاف يسجّل حضوراً قوياً في المؤلفات والدراسات البلاغية القديمة إلى أن استقرت معاملة على يد "أبي يعقوب السكاكي" الذي يذهب إلى أنّ التقسيم الأصح هو التقسيم الثنائي، فأما أولهما فهو الخبر، وهو الذي يمكن الحكم عليه بالصدق أو الكذب، وأمّا النوع الثاني فهو الإنشاء الذي يقترن لفظه بمعناه، وتنجز دلالاته خارج حدود الحدث الكلامي بواسطة القول.

5.3: الملفوظات الوصفية والملفوظات الانجازية:

يميّز "أوستين" بين نوعين رئيسيين من الملفوظات هما الملفوظات الوصفية (التقريرية) والملفوظات الإنجازية (أو الإنشائية أو الأدائية)، حيث تتضمن الملفوظات الوصفية وصف الواقع الخارجي، ممّا يؤهلنا لأن نحكم عليها بالصدق أو الكذب، على عكس الملفوظات الإنجازية التي لا يمكن تطبيق هذا المعيار عليها، باعتبار أنّها لا تهتم بوصف هذا الواقع، لكنّ هذا لا يعني أنّها تفتقر إلى معنى بل هي ذات طابع إنجائزي يظهر في أنّها تكون قادرة على تحقيق فعل معيّن أو إحداثه بمجرد النطق أو التلفظ بها.

ومن ثمّ، فالفارق بين النمطين واضح، ففي حين تكتفي الأولى بوصف حدث أو حالة أو موقف معيّن وصفا يفتقر إلى الأفعال والأحداث، تنجز الثانية قولاً وفعلًا في الوقت ذاته، كما أنّها بإمكانها أن تحدث تغييراً نسبياً في الواقع (البيع، الشراء، الطلاق...) فالمعيار الذي يطبّق على هذا النوع من الملفوظات هو معيار النجاح أو الفشل وليس معيار الصدق أو الكذب.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأنّ مفهوم الانجائيات في التداولية المعاصرة يتقابل مع مفهوم الإنشائيات في التراث العربي، فقد تناولها القدامى بالتعريف والتفسير مستعملين في سياق ذلك مصطلحات تقترب كثيراً من المصطلحات التي توظفها النظريات التداولية الحديثة.

"فالرضي الاسترابادي" يعرفها من وجهة تداولية تراثية فيقول: «هي التي ينشئ بها المتكلّم مضمون القول ويحدثه، ولم يكن موجوداً قبل تلفظه، فهو يقوم بفعل قول: إذا قلت نعم الرجل زيد، فإنّما تنشئ المدح، وتحدثه بهذا اللفظ، وليس المدح موجوداً في الخارج في أحد الأزمنة."²⁸

ومن جهته يؤكّد "أحمد المتوكّل" هذا التقابل البارز بين مفهوم الأساليب الخبرية والإنشائية في الدراسات البلاغية العربية القديمة والحديثة على حدّ سواء، وبين الملفوظات الوصفية والملفوظات الإنجازية في التداولية الغربية، حيث يصحّ بذلك قائلنا: "من المعلوم أنّ الفكر اللغوي القديم يتضمّن ثنائية (الخبر والإنشاء) التي تشبه إلى حدّ كبير الثنائية الأوستينية (الوصفية والانجاز)، كما يدلّ على ذلك تعريف القدماء للخبر والإنشاء،

إذ الجملة الخبرية عندهم هي التي تحتل الصدق والكذب، في حين أنّ الجملة الانشائية هي الجملة المتوافرة فيها خاصيتان: أنها لا تحتل الصدق والكذب، مدلولها يتحقق بمجرد النطق بها،²⁹ فالظاهرة إذن وإن بدت أنّها مستحدثة في الفكر الغربي الحديث تنظيرا وتقييدا فإنّ جذورها تمتدّ إلى أعماق التراث العربيّ على المستويات النظرية والتطبيقية في وقت واحد.

6.3. الملفوظات الإنجازيّة المباشرة وغير المباشرة

يرى "سيرل" أنّ هناك نوعا من الأفعال الكلاميّة لا يمكن أن تظهر دلالتها الفعلية أو الصريحة من خلال الشكل الخارجي الذي ينطق به المتكلّم أو يتلفظ به، بل تبقى العوامل السياقية والمقامية التي تحيط بأطراف العملية التواصلية هي المسؤولة عن تحديد الهدف المقصود من وراء هذه الملفوظات، ومن هذا المنطلق فهو يميّز بين نوعين من الملفوظات الإنجازيّة، وهي:

أوّلا- الملفوظات الإنجازيّة المباشرة:

هي أفعال تظهر قوّتها الإنجازيّة من خلال الصياغة الشكلية للعبارة، وهذا ما يجعل مقصد المتكلّم متطابقا تطابقا كليّا مع هذه الصياغة الخارجيّة للقول المتلفّظ به، ومن ثمّ تكون دلالتها الحرفيّة جليّة وواضحة، حيث نستدلّ عليها من خلال الصيغة التي تعبّر عنها.

ثانيا. الملفوظات الإنجازيّة غير المباشرة:

هي التي تتجاوز الصورة الظاهرة والشكل الخارجي للعبارة، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا النوع من الألفاظ يمكن أن يتحقّق بطريقة غير مباشرة بواسطة تدخّل فعل إنجازيّ آخر، وتبعاً لذلك فإنّ الجملة الواحدة - حسب سيرل - يمكنها أن تحقّق أو تنجز فعلين كلاميين أو أكثر دفعة واحدة وفي الوقت ذاته، "أحدهما مباشر يستدلّ عليه من المعنى الحرفي للملفوظ، وآخر غير مباشر يفهم من سياق الكلام، وننتقل من أولّها إلى ثانيها عبر سلسلة من الاستدلالات"³⁰ وقد ظهرت هذه المفاهيم نفسها عن "بول غرايس" في إطار ما أطلق عليه اسم (الاستلزام الحواري) إذ لاحظ أنّ الجمل اللغوية بإمكانها أن تدل على معانٍ إضافية غير معانيها الأصلية التي نستدلّ عليها من صيغتها الظاهرة.

والقضيّة نفسها طرحها البلاغيون العرب، إذ يرون أنّ تحقيق الغاية المتوخاة من الكلام تتوقف على مدى مراعاة المتكلم لما عرف عندهم ب(مقتضى الحال)، ومردّد ذلك أنّهم لم ينظروا إلى الجملة من منظار ضيق فقط بوصفها تمثّل مستوى واحدا فقط هو المستوى التركيبي، وإنّما نظروا إليها من زاوية أوسع تعكس تعدّد المستويات اللغويّة التي تمثلها تبعاً للمعنى الذي يريد المتكلّم أن يبلّغه إلى الآخر.

وتأسيساً للنظرة السالف ذكرها، قسّم أعلام البلاغة العربيّة المعنى إلى قسمين أوّلهما المعنى الحرفي أو البارز، وثانيهما هو المعنى المستلزم مقامياً. ذلك أنّ مردّد هذه الازدواجية الدلالية التي تتمتع بها الملفوظات اللغويّة هو أنّ كلّ واحدة منها ينطوي تحتها معنى صريح يستنتج من الصياغة الخارجيّة للعبارة، وآخر ضمني يتماشى مع المقام الذي قيلت فيه. حيث يظهر هذا المفهوم في صورة واضحة عند "الجرجاني"، إذ يصرح بذلك فيقول: "الكلام على ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت (خرج زيد) والانطلاق عن عمرو فقلت (عمرو منطلق) وعلى هذا القياس. وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلّك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في

اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض.³¹ وعليه، فإنَّ المعنى عند " الجرجاني " صنفان رئيسيان:

أ- المعنى:

ونعني بها الدلالة التي تفهم من الصيغة الظاهرية التي يحيل إليها اللفظ، والتي يمكن التوصل إليها بشكل مباشر أي دون الاستعانة بوسائط أخرى.

ب- معنى المعنى:

وهو أن يحيلنا اللفظ إلى معنى محدّد، ثمّ يشير في الوقت ذاته إلى معنى آخر ملازم له. يتبيّن لنا ممّا تمّ عرضه أنّ هذه المفاهيم التي زخرت بها مؤلفات الجرجاني وغيره من أعلام البلاغة العربية التراثية تقترب كثيرا ممّا أسماه "سيرل" (الأفعال اللغوية المباشرة والأفعال اللغوية غير المباشرة) حيث يقابل "الجرجاني" النمط الأوّل (بالمعنى)، ويقابل الثاني (بمعنى المعنى)، عن هذا يقول: " نعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر."³²

7.3- الاستلزام الحواري

يقودنا الكلام السابق إلى الإشارة إلى مفهوم آخر يلزم ما أشرنا إليه سلفا، هو ما يعرف بمبدأ (الاستلزام التخاطبي أو الحواري) الذي يظهر في أبسط وأوضح صوره فيما يعرف في البلاغة العربية ب(الكناية) التي يعرفها "الجرجاني" من هذا المنطلق فيقول: " الكناية هاهنا أن يريد المتكلّم إثبات معنى من المعنيين فلا يذكره باللفظ الموضوع له، ولكن يجيء إلى آخر، هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه، يجعله دليلا عليه."³³ فالكناية بناء على هذا التحديد تخرج عن مقتضى الظاهر لتدل على معنى آخر يتطابق مع السياق والمقام الذي وظّفت فيه، فهي إذن تحقّق أفعالا غير مباشرة في عرف التداوليين.

ومن ثمّ فإنّ (ظاهرة الاستلزام الحواري) كان لها موقع خاص ومتميز في صرح البلاغة العربية، التي تركز على قاعدة محورية تتمثّل في أنّ الكلام قد يخرج في أحيان كثيرة عن المعنى الأصلي الذي اقترن به في أصل وضعه على معان وأغراض أخرى قصدها المتكلّم الذي يمكن أن يحقق غايته وأهدافه البلاغية إذا تحققت الشروط الكفيلة بإفادة المعنى الأصلي أو الصريح على المستويين المقالي والمقامي.

- خاتمة:

نخلص إلى القول، من كلّ ما تمّ الوقوف عليه في المحاور المطروحة في هذه الورقة البحثية أنّ بذور التداولية كانت حاضرة في ثنايا البلاغة العربية من خلال ما ظهر في مؤلفات عدد من البلاغيين والأصوليين العرب أمثال: "الجرجاني، والفارابي، والسكاكي والجاحظ وغيرهم...ممن عمدوا إلى تحليل مختلف الظواهر الأسلوبية بالاعتماد على مختلف الآليات المنطقية والبلاغية التي كانت ومازالت مناط اهتمام الدرس التداولي الحديث. الذي قدّمها بقوالب مصطلحية مستحدثة ولكنها حاملة لنفس المفاهيم والتصورات التي كان للعرب الأوائل السبق في طرحها كما تؤكد الكثرة من الدراسات الحديثة.

الهوامش والإحالات:

- ¹- أبو هلال العسكري (1986م)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البحاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، منشورات المكتبة العصرية، دط، ص 69.
- ²- مازن المبارك (دت)، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دط، ص 19.
- ³- المرجع نفسه، ص 21.
- ⁴- عبد الرحمان حسن الميداني (1996م)، البلاغة العربية (أسسها وعلومها وفنونها)، دار القلم، ط 1، ص 18، 91.
- ⁵- محمد كريم الكواز (2006م)، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط 1، ص 185.
- ⁶- الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة (1988م)، راجعه: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط 1، ص 80.
- ⁷- محمد علي التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم تح: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، لبنان، مج 3، ص 574.
- ⁸- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 81.
- ⁹- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ج 1، ص 136.
- ¹⁰- محمد بن علي السكاكي (1983م)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 168.
- ¹¹- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، (1984م)، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ط 5، ص 9.
- ¹²- الجاحظ، البيان والتبيين، ج 1، ص 130.
- ¹³- أبو الحسين إسحاق بن وهب (دت)، البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، مصر، دط، ص 194.
- ¹⁴- ابن رشيقي القيرواني (1961م)، العمدة في محاسن الشعر وأدابه ونقده، تح: محمد محي الدين، دار الجيل، بيروت، ط 5، ص 141.
- ¹⁵- أبو هلال العسكري (1952م)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، ص 395.
- ¹⁶- ابن السيد البطليوسي (1981م)، الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، تح: مصطفى السقا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، ص 142.
- ¹⁷- طه عبد الرحمان (1998م)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط 1، ص 225، 226.
- ¹⁸- صابر الحباشة (2006م)، التداولية والحجاج (مداخل ونصوص)، صفحات للدراسات والنشر، دمشق، سوريا، ص 50.
- ¹⁹- أبو الحسن حازم القرطاجني (1986م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط 3، ص 361.
- ²⁰- الجاحظ، البيان والتبيين، ص 82.
- ²¹- حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 361.
- ²²- السكاكي، مفتاح العلوم، ص 432.
- ²³- محمد العمري (2002م)، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، المغرب، ط 2، ص 82.
- ²⁴- القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 18.
- ²⁵- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، ص 74، 75.
- ²⁶- جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، إلتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، دط، ج 2، ص 98.
- ²⁷- رضي الدين الاسترابادي (2000م)، شرح الكافية في النحو، تح: رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، دط، ص 24.
- ²⁸- رضي الدين الاسترابادي (1996م)، شرح الرضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، ط 2، ص 238.

²⁹ - أحمد المتوكل، (1987م)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، منشورات عكاظ، دط، ص 37.

³⁰ - المرجع نفسه، ص 22.

³¹ - عبد القاهر الجرجاني (دت)، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، دط، ص 70.

³² - المرجع نفسه، ص 262.

³³ - المرجع نفسه، ص 66.

قائمة المصادر والمراجع:

أبو هلال العسكري (1952م)، كتاب الصناعتين (الكتابة والشعر)، تح: علي محمد البحاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، ط 1، د م ن

- إبراهيم أنيس (1984م)، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو، ط 5، القاهرة

- ابن رشيق القيرواني (1961م)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تح: محمد محي الدين، دار الجيل، ط 5، بيروت.

- ابن السيد البطليوسي (1981م)، الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، تح: مصطفى السقا، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ط 1، مصر

- أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (دت)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، دط، القاهرة..

- أبو الحسين إسحاق بن وهب (دت)، البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة عابدين، دط، مصر،

- أبو الحسن حازم القرطاجني (1986م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الغرب الاسلامي، ط 3، بيروت.

- أحمد المتوكل، (1987م)، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 2، لبنان

- جلال الدين عبد الرحمان السيوطي (دت)، الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، دط، بيروت،

- الخطيب القزويني، (1988م) الإيضاح في علوم البلاغة، راجعه: بهيج غزاوي، دار إحياء العلوم، ط 1، بيروت

- رضي الدين الاسترابادي (2000م)، شرح الكافية في النحو، تح: رحاب عكاوي، دار الفكر، بيروت، دط،

- رضي الدين الاسترابادي (1996م)، شرح الرضي على الكافية، تح: يوسف حسن عمر، منشورات جامعة قار يونس، ط 2، بنغازي، ليبيا.

- صابر الحباشة (2006م)، التداوليّة والحجاج (مداخل ونصوص)، صفحات للدراسات والنشر، (دط) دمشق، سوريا،

- طه عبد الرحمان (1998م)، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، ط 1، المغرب.

- عبد القاهر الجرجاني (دت)، دلائل الإعجاز، تح: محمود شاكر، مكتبة الخانجي، دط، القاهرة،

- عبد الرحمان حسن الميداني (1996م)، البلاغة العربيّة (أسسها وعلومها وفنونها)، دار القلم، ط 1. دمشق

- مازن المبارك (دت)، الموجز في تاريخ البلاغة، دار الفكر، دط، د م ن .

- محمد بن علي السكاكي (1983م)، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، دط، لبنان.

- محمد علي الهانوي، (دت) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم تح: علي درجوع، مكتبة لبنان ناشرون، دط، لبنان،

- محمد العمري (2002م)، في بلاغة الخطاب الإقناعي، إفريقيا الشرق، ط 2، المغرب،

- محمد كريم الكوازي (2006م)، البلاغة والنقد (المصطلح والنشأة والتجديد)، مؤسسة الانتشار العربي، ط 1، بيروت، لبنان،

- مسعود صحراوي (2005م)، التداولية عند العلماء العرب، دار الطليعة، ط 1، بيروت.